

## الثنائيات الضدية عند علي حرب

## The dualities of contradiction in ali Harb's philosophy

بوشارب زينب فاطمة الزهراء<sup>1\*</sup>، حاج علي كمال<sup>2</sup><sup>1</sup> جامعة 8 ماي 1945 قالمة، مخبر الفلسفة والدراسات الإنسانية والاجتماعية ومشكلات الإعلام

boucharebzineb104@gmail.com، (الجزائر)

<sup>2</sup> جامعة 8 ماي 1945 قالمة، مخبر الفلسفة والدراسات الإنسانية والاجتماعية ومشكلات الإعلام

والاتصال (الجزائر)، Kamelhadjali83@gmail.com

النشر: 2026/06/30

القبول: 2026/06/26

الاستلام: 2025/12/31

## ملخص:

تعدّ إشكالية الثنائيات الضدية من أعقد الإشكالات التي طرحت في الساحة الفكرية العربية؛ إذ شكلت محورا للصراع الفكري والثقافي، لما لها من تأثير في مناهج التفكير ونوعية الخطاب. وقد اتخذها عديد المفكرين العرب منهجا معتمدا في بناء أنساقهم الفكرية التي شكلت نوعا من الخطاب الإقصائي يقوم على منطق الصيغ الشرطية: إما/أو. مشكلة بذلك خطابا يغلب عليه الطابع الذاتي بعيدا عن الاحترافية الموضوعية. من بين المفكرين الذين تناولوا هذه الإشكالية الفيلسوف علي حرب؛ فقد عكف إلى تفكيكها وإعادة النظر في تأثيراتها على الخطاب. وهدف بحثنا إبراز موقفه من الثنائيات، والكشف عن كيفية تفكيكه لها، متناولين ثلاثة محاور أولها يمثل مقارنة مفاهيمية للثنائيات. والثاني يمثل محور تفصيلي خاص بتفكيك الثنائيات في الفكر العربي، ومنه عند علي حرب. والثالث بمثابة محور نقدي يتم فيه الوقوف على أهم حدود هذه الدراسة.

الكلمات المفتاحية : نقد فلسفي : منطق صوري : ثنائيات ضدية : علي حرب.

## Abstract:

The problematic of Binary oppositions is regarded as one of the most significant issues discussed in the Arab intellectual field, as it has formed a focal point of cultural and intellectual conflict due to its influence on modes of thinking and the nature of discourse. Many Arab thinkers have adopted dualism as a methodological framework in constructing their intellectual systems, resulting in exclusionary discourses dominated by subjectivity and lacking professional objectivity. Among the thinkers who addressed this issue is Ali Harb, who devoted his efforts to deconstructing these binary oppositions and rethinking their impact on discourse. This research aims to highlight Ali Harb's position on binary oppositions to reveal how he deconstruct them.

The study is divided into three main sections : the first presents a conceptual approach to the notion of binary oppositions ; the second offers a detailed analytical reading of Ali Harb's deconstruction of these dualities; and the third provides a critical evaluation of the finding and limitations and limitations reached through this intellectual endeavor.

**Keywords:** Philosophical Critique ; Formal Logic ; Binary Oppositions ; Ali Harb

## 1. مقدمة:

شكل التفكير الثنائي أحد أنماط التفكير الإنساني عموماً منذ تجربته الأولى في الوجود؛ حيث ارتبط بالدين. وقد عرف الإنسان ثنائية الخير/الشر، الحق/الباطل، الجنة/الجحيم. ومع التطور الذي شهده الفكر، امتد هذا النمط إلى الفلسفة، فتعددت دلالاته والغايات من اعتماده كإحدى ركائز بناء الأنساق الفكرية؛ حيث تبني عدد من الفلاسفة مبدأ تفسير العالم وفق مبدئين اثنين أساسيين، يتفاعلا ويتكاملا مع لفهم الوجود والمعرفة والإنسان، وهذا هو جوهر الثنائية عموماً.

غير أن الثنائية لم تبق مجرد أداة لتفسير العالم، بل تجلت أيضاً في كونها أحد أطر التفكير الأيديولوجي؛ إذ اقترن مصطلح الثنائية مع الأضداد والمتناقضات التي لا تجتمع، الأمر الذي جعل منها السبب الرئيس في تكريس خطاب الهيمنة والمركزية والإقصاء، بالتالي يمنح أحد الطرفين الامتياز، ويقصي الآخر تماماً.

انتقلت هذه النظرة إلى الساحة الفكرية العربية؛ فبرزت ثنائيات تشكل ركيزة مهمة في بناء أنساق الخطاب العربي، منها: التراث والحداثة، الأصالة والمعاصرة، الأنا والآخر، الشرق والغرب... الخ.

ولد هذا المنطق (منطق الإما/أو) إشكالية فكرية راهنة في الساحة الفكرية العربية. ومن بين المفكرين الذين اشتغلوا عليها، الفيلسوف علي حرب؛ ناظراً إليها كنوع من التفكير المنغلق الذي يغذي التعصب والانقسام، وقد يؤدي للشعور بالدونية أو الفوقية والمركزية لطرف دون الآخر. من هنا، تبرز أهمية هذا البحث في كونه ينظر فيالقضايا الفكرية بمرونة وسلاسة دون تحجر أو انغلاق. ومنذ بداية مشروعه، عكف حرب على

محااربة منطق الثنائيات المتضادة باعتباره أكبر المشكلات التي وقع فيها الخطاب العربي، والذي جعل من النخبة ترى نفسها وصية على التراث، والهوية، والأصالة والدين.

سعى حرب من خلال نقده وتفكيكه للثنائيات إلى بناء نسق فكري قائم على الانفتاح، داعياً إلى التخلي عن الطرق القديمة. معيداً النظر في الأنساق الفكرية المطلقة والتفسيرات الأحادية. ونحن بدورنا نسعى إلى تحليل خطاب الثنائيات من منظوره، وهذا من خلال نصوصه المتعلقة بالثنائيات، والكشف عن بنيتها المفهومية وآليات اشتغالها داخل خطابها. كما عملنا على ضبط نتائج تفكيكه للثنائيات. انطلاقاً مما سبق، تتجلى إشكالية الدراسة في السؤال الجوهرى الآتي: كيف ينظر علي حرب للثنائيات الضدية؟ وكيف فككها؟ وما الحلول التي قدّمها للتحرر من قيد المنطق الثنائي؟

## 2. الثنائيات الضدية مقارنة مفاهيمية

### 1.2. مفهوم الثنائية:

#### أ- الدلالة اللغوية:

تعود الثنائيات إلى الجذر الثلاثي (ث ن ي). من معانيه تكرار الشيء مرتين متواليين. والثني: ردّ الشيء بعضه على بعض. والثنائي من الأشياء ما كان ذا شقين، والثنائيات تفترض وجود طرفين، ويعني لفظ الثنائية ضعف العدد واحد. وقد يكون هذا الضعف شبيهه، أو نظيره أو ضده، فالعدد واحد يشكل مع واحد آخر ثنائية مهما كانت العلاقة بينهما. وفي هذه الحال، يلزم كل طرف من طرفي الثنائية الآخر، ولا ينفك عنه. وإذا

كان قابلاً للانفكاك عنه، انتفت عنه صفة الثاني(الديوب، 2017، صفحة 15).

#### ب- التعريف الاصطلاحي:

جاء في المعجم الفلسفي لجميل صليبا أنَّ الثنائي من الأشياء ما كان ذو شقين. والثنائية هي القول بزوجية المبادئ المفسرة للكون، كثنائية الأضداد وتعاقيها أو ثنائية الواحد والمادة أو ثنائية عالم المثل وعالم المحسوسات عند أفلاطون. والثنائية مرادفة للإثنينية، وهي كون الطبيعة ذات مبدئين(صليبا، 2022، صفحة 380). يعني أنَّ مفهوم الثنائية يشير إلى عدّة مفاهيم متقابلة مثنى مثنى، منها ما ذكر صليبا في تعريفه، وجوهر فكرتها يقوم على تفسير الحقائق إلى مبدئين مستقلين.

أما في بعدها الفلسفي، فتعني الثنائية نظرية فلسفية تقول بازدواج المبادئ المفسرة للكون، ومنها ثنائية الأضداد وتعاقيها؛ فهي تعدّ الجوهرين الروحي والمادي جوهرين متساويين. وتتمثل خلاصة الفلسفة الثنائية المادية في كونها اجتماع الأضداد؛ إذ يتغلب الضدّ على ضده، فلا توجد حالة إلا وهي تنطوي على ما يتضاد معها(الديوب، 2017، صفحة 65).

والأضداد نظرية قائمة على تفسير العالم والحقائق بمنطق ثنائي القيمة، إما أن يتم فيه تغليب الطرف الأول أم الطرف الثاني، لذا سي بمنطق الإما/أو، لكونه لا يقبل التركيب بين الطرفين أو التجاوز. ولطالما صادفتنا ثنائيات في شتى القضايا والميادين الفلسفية، مثلاً مشكلة أصل المعرفة التي تنازعها التجريبيون والعقليون عن طريق العقل أو عن طريق التجربة بمنطق لم يقبل فيه زعماء الاتجاهين التركيب بين الطرفين. هذا في مجال المعرفة. وفي مجال الثقافة

والحضارة، نجد ثنائية الشرق/الغرب التي أضحت الشغل الشاغل للمفكر العربي بعد أن تلقى الصدمة الأولى على يد المحتل، ما جعلته يعرف مدى تخلفه، أو ثنائية التراث/الحداثة، أو ثنائية الأصالة والمعاصرة التي كانت جلها قائمة على أيديولوجيات متنازعة. فإذا لجأ الفيلسوف إلى تفسير حقيقة ما انطلقاً من مبدئين أساسيين، كان من أنصار الثنائية. وإذا لجأ إلى مبدأ واحد، كان من أنصار الواحدة.

والمهم في ضبط المفهوم لهذا النمط من التفكير، هو أن نفهم الخلفية التي صيغ على أساسها أنَّ العلاقة بين طرفي الثنائية ليست ثابتة؛ فمن المفكرين من يعتبر أنَّ طرفي الثنائية يشكّلان كلا متكامل لا يمكن الفصل بينهما فيه. كما لا يمكن التخلي عن طرف منها؛ بحيث أنَّ قوة طرف لا تكتمل إلا بالثاني. لكن إذا انطلق المفكر من خلفية الإقصاء والتّمرّك، ستكون العلاقة بين الطرفين علاقة تضاد؛ أي يتم اختيار أحد الطرفين دون الآخر، فلا توجد منطقة رمادية أو حلّاً وسطاً بينهما. وهو ما يعرف بمنطق الإما/أو.

#### 2.2. نماذج من الثنائيات الفلسفية

لاحظ الإنسان منذ القدم أنَّ هذا الكون قائم على ثنائيات وأضداد متقابلة. وقد تعدّدت مجالات وأنواع الثنائيات؛ فمن المفكرين من يصنفها إلى ثنائيات أخلاقية، خير/شر. اجتماعية، ظالم/مظلوم. وجودية، إنسان/كون، فلسفية، إبستيمولوجية، أدبية شعرية. لكن سنحاول إدراج جميع هذه التصنيفات ضمن نوع جامع لها. وتتمثل في ثنائيات وجودية، ثنائيات القيم، ثنائيات معرفية.

##### 1.2.2. ثنائيات وجودية (أنطولوجية):

تعني الثانية أَنَّ العالم ليس مخلوقاً؛ بل هو لا بداية له؛ أيْ أزلّي. إذن فالقول بالخلق يعني أَنَّ الواحد أصل الكثرة. والقول بالأزل يعني أَنَّ الأشياء بعضها عن بعض.

إذن، فهي إشكالية تتعلق بالخلق أو مصدر الوجود، وكيف انبثق هذا الوجود المتعدد عن الواحد الذي هو الله. وهذه من أكثر المشكلات الفلسفية تعقيداً، خاصة في الفكر الإسلامي بعد أن لم يكن المسلمون يتساءلون أصلاً عن هذا بفعل الإيمان الصادق والمطلق بأنَّ الله خلق الوجود من العدم. وتلك الأسئلة التي أثارها اليونانيون بدايةً كان منطلقها الإقرار بوجود كائن قديم مجرد من المادة، أوقعهم في قلق فكري: كيف تنبثق المادة عن الروح؟ وكيف تنبثق الكثرة عن الواحد؟

#### د-ثنائية الروح والجسد:

نظرية فلسفية تبحث في العلاقة بين الرُّوح أو النَفْس والجسد؛ فمنهم من يرى أنَّهما متّصلان؛ أيْ أنَّهما واحد. والجسد والروح كلاهما ماديان، وهم الماديون. ومنهم من يقول بأنَّ الإنسان يتكون من جوهرين مختلفين ومنفصلين. وأشهر من مثلها ديكارت، ألا وهما الجسد المادي، والروح أو العقل. وهي ذات طبيعة غير مادية، والجسد هو الخاضع لقوانين الطبيعة، بينما الروح هي التي تفكر وتشعر. يقول في رسالة إلى الأميرة إليزابيث: "وَأَيُّ الأَحْظ في البدء فرقا كبيراً؛ حيث لا يمكن تصوّر النفس إلا بواسطة التفكير الخالص، ولا يمكن تصوّر الجسم، وأقصد بذلك الامتداد والأشكال والحركات إلا بواسطة التفكير أيضاً" (طحطاح، 2018، صفحة 685).

وهو هنا، يوضح الانفصال البيدي بين المفهومين وطبيعة العلاقة التفاعلية بينهما.

تتعلق بطبيعة الوجود والكينونة. وتشمل الثنائيات المتعلقة بما يوجد في الطبيعة الكونية أو الإنسانية أو الميتافيزيقية:

#### أ- ثنائية الوجود والعدم:

تعدّ من أقدم وأكثر المسائل الفلسفية تعقيداً. عالجها الإنسان منذ القدم؛ فالوجود والعدم ضدان يمثلان معجزة كونية تحكمان نظرتنا إلى الحياة والموت، ولا يمكن تصوّر قيمة الوجود إلا بموازاة العدم، ولا يمكن فهم حقيقة العدم إلا في مقابلته بالوجود.

اختلف الفلاسفة في تفسيرهما؛ ففي اليونان مثلاً، رأى بارمينيدس أَنَّ الوجود هو الحقيقة المطلقة، وأنَّ العدم مجرد وهم. كما ذهب آخرون إلى أنَّهما لا ينفصلان عن بعضهما البعض، بحكم أَنَّ الكون في تغير دائم. ثم جاء الفكر الحديث خاصة الفلسفة الوجودية ليمنح العدم بعداً وجودياً ونفسياً، معتبراً أَنَّ وعي الإنسان بفنائه، هو ما يمنحه حقيقته، ويؤسس معنى وجوده.

#### ب- ثنائية الطبيعة والصيرورة (الثبات والتحول):

تشكلان معاً جدلية فلسفية؛ فلا يمكن فهم الثبات إلا عن طريق التغير والعكس. وهي تعبر عن القلق الدائم بين الثبات والتحول بين ما هو كائن وثابت وبين ما سيصير إليه الوجود.

#### ج- ثنائية الوحدة والكثرة:

تعدّ من أبرز الثنائيات الفلسفية، وصدرت عنها ثنائية الخلق/الأزلية (الديوب، 2017، صفحة 67). ويعني الطرف الأول: أي "الخلق"، وأنَّ العالم حادث مخلوق من عدم.

يقول أيضاً: "الناس الذين لم يكن لهم الحظ من التّفلسف إطلاقاً، ولم يستعملوا سوى حواسهم لديهم دون شك أنّ النفس تحرك الجسم، وأنّ الجسم يؤثر في النفس" (طحطاح، 2018، صفحة 46).

#### هـ- ثنائية الحضور والغياب:

يشير الحضور إلى حضور الذات في الواقع، وإلى قدرتها على تأسيس وجودها الخاص. في حين، يشير الغياب إلى عدم قدرتها على التواصل مع واقعها نتيجة الكثير من المؤثرات. وبهذا تبقى الذات متأرجحة على نحو جدلي بين قطبي هذه الثنائية، ويفرض عليها وضعاً دائماً من التباين والتناقض والتخالف (مهدي حسين، 2023، صفحة 162).

#### 2.2.2. ثنائيات قيمة (أكسيولوجية):

هي ثنائيات مجالها القيم، بما فيها القيم الأخلاقية المنطقية قيمتي الصواب والخطأ، والقيم الجمالية؛ لأنّ الجمال هو قيمة أيضاً، معياره الحسن والقبيح. وانطلاقاً من هذا التقسيم، نجد أنّ التفكير الثنائي بدأ منذ القدم حين حاول الإنسان فهم العالم من حوله، فلاحظ العديد من المتضادات كالنور والظلام، أو ما يسمى بالضوء والعتمة التي تمّ التعبير عنها في كثير من الأشعار الأدبية على أنّهما ظاهرتان طبيعيتان تدلان على مفاهيم الخير والفضيلة، والنقاء والصدق بالنسبة للنور، والعتمة تمثّل الجهل والردّية والفساد (طحطاح، 2018، صفحة 5).

وكذلك ثنائية الخير والشر اللتان تمثلان قيمتان أخلاقيتان متضادتان في صراع أبدي منذ القدم، ومنطلقها لا شك أنّه ديني بالأساس؛ فالدين هو

الذي فصل بين ما هو خير وما هو شر. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". والأخلاق ليست مجرد سلوك ومعاملة؛ بل هي طاعة لأوامر ربانية خالصة. ولما تبين أنّ بعض القيم الدينية والأخلاقية متداخلة، عمدنا إلى تحليلهما معاً، خاصة أهم ما جاء له الدين من الفصل بين الحق والباطل، وبين الخير والشر.

كما نجد في المنطق ثنائيي الصواب والخطأ بما أنّ المنطق جاء ليفصل بينهما وليحيي العقل من الوقوع في الزّلات الفكرية. وفي الجمال، نجد ثنائية الحسن والقبيح: فلا يمكن أن يفهم القبيح إلا بجانب الجميل، ولا تعرف قيمة هذا الأخير إلا بالموازاة مع القبيح.

#### 3.2.2. ثنائيات إبستمولوجية وأيديولوجية:

نقصد بها ثنائيات تمس الجانب المعرفي بجميع مجالاته دون استثناء؛ أيّ جميع الضديّات يمكن أن تدرج ضمن إشكاليات معرفية، في الأدب أو في الفيزياء، أو في علم النفس أو في الفلسفة" بما فيها من أيديولوجيات كبرى قائمة على الثنائيات الضدية والمتقابلة، كثنائية العقل والحس في مشكلة مصدر المعرفة، ثنائية الشعور واللاشعور في التحليل النفسي، ثنائية الأنا والغير في مشكلة معرفة الذات، ثنائية الكلام والكتابة في اللغة، ثنائية الحلم والواقع في الأدب، ثنائية العقل الآري والعقل السامي في الفلسفة الغربية، والتي تعدّ من أكثر الثنائيات الاستشرافية عنصرية، ثنائية التّقدم والتّخلف للتأكيد على المركزية الغربية. وفي الفكر العربي، نجد ثنائيات التراث والحداثة، الدين والعلمانية، الأصالة والمعاصرة... الخ.

وبين الذات/ الغير، وبين التراث / الحداثة، وبين الأصالة / المعاصرة؛ حيث كشفت الحملة العسكرية التي قادها نابليون بونابرت سنة 1798م الفرق الكبير بين الطرفين في شتى مجالات العلم والسياسة والأسلحة، وهكذا بدأوا يتساءلون لم تقدّم الغرب وتأخرنا نحن؟

انبثقت جميع الثنائيات السابقة عن الفارق الحاصل بين الشرق والغرب، والتي تنازعتهما أيديولوجيات مختلفة فصارت خطايا مؤدجاً مغلقاً، ذاتياً بعيداً عن الموضوعية العلمية. فبدل أن يعالج القضايا والواقع العربي، أضحت الساحة معركة فكرية ينعدم فيها الحوار بين تيار متمسك بالتراث وأصالة الأجداد وبين تيار تعلمن ووجد القطيعة الأبدية مع كل قديم كسبيل التطور الحضاري. ومن أمثلة المفكرين العرب الذين عالجوا هذه القضية، نجد فتحي التريكي المفكر التونسي المعاصر الذي كان من دعاة الحق في الاختلاف كمبدأ يجب الأخذ به في المشروع العربي. وقد أطلق على فلسفته أسماء متعددة، منها: "فلسفة التنوع" والاصطلاح الأخير هو "الفلسفة المفتوحة"، وهي فلسفة بديلة تهدف إلى تحطيم "الدعوى الغربية بكونية فلسفته وتفكيره وثقافته من ناحية وتحرير ذاتنا من عبودية القهر والاستبداد بإقرار حرية التفكير، والاعتراف الكامل بحقوق الاختلاف والتنوع من ناحية أخرى (بن دوبة، 2019، صفحة 14)، فاتحا بذلك الأفاق نحو فلسفة جديدة بعيدة عن الثنائيات الإقصائية.

وأيضاً عبد الوهاب المسيري الذي كانت له وجهة نظر مغايرة ومختلفة عن رؤية فتحي التريكي. ما أثارنا إلى إبراز فكرته قبل الانتقال لمفكرنا اللبناني، ما يساعدنا على تحديد موقعه بوضوح.

يجب أن نشير إلى أننا تعمّدنا الجمع بين الإبستمولوجيا والأيدولوجيا؛ إذ لاحظنا أنّ أغلب الثنائيات تكتسي طابعاً معرفياً من جهة، أيديولوجياً من جهة أخرى. فعدد من التصورات المعرفية، أضحت أيديولوجياً، مثلاً حين يحتكر المستشرقون المعرفة والعلوم وينسبونها لأنفسهم، وينكرونها على العرب، فهي بحدّ ذاتها أيديولوجياً معرفية، هم بالذات أبدعوا في التفرقة بين العقل الغربي والعقل الشرقي. يؤكد عبد الله العروي صعوبة الفصل بين المعرفة والألدوجة، باعتبار الألدوجة تمثل البنية العامة لروح حقبة تاريخية أو طبقة اجتماعية (العروي، 2012، صفحة 89). فالعديد من النظريات العلمية في علم الاقتصاد تمت أدلجتها والعكس: "بيد أنّ علم الاقتصاد لم ير ذاته كنتيجة تطور لها بداية وقد تكون له نهاية، بل نظر إلى ذاته كحقيقة مطلقة أزلية، وهكذا أضحي قابلاً للتدليج" (العروي، 2012، صفحة 101).

هكذا إذن، شأن الفلسفات التي نظرت لنفسها على أنّها حقائق أزلية، ومنها فلسفة الثنائيات التي أضحت أيديولوجياً هي الأخرى.

### 3.2. تمظهر التفكير الثنائي في الساحة العربية:

تحوّل الإنسان من ملاحظة الثنائيات الموجودة في الطبيعة إلى إنتاجها ضمن أنساق معرفية منطقية. ويبدو أنّ الفكر العربي هو الآخر لم يفتقر لهذه الثنائيات التي تشكلت انطلاقاً من المنظومة الدينية كالعقل / النقل، الوحي / الحكمة، المؤمن / الكافر. وفي الزمن المعاصر، تبلورت الثنائيات مع الإشكاليات الراهنة التي طرحته في الساحة الفكرية العربية. خاصة بعد الحملة الفرنسية على مصر، والتي كانت سبباً أساسياً في اكتشاف الهوة بين الشرق / الغرب

إذن مما سبق، تعرفنا على التفكير الثنائي عموماً، واتضح لنا من خلال الدراسة أنّ هذا النمط من التفكير له مجالات متميزة، منها الفلسفية التي بدورها لها أشكال متعددة حسب مبحث التفكير. كما أنّه ذو بعدين أساسيين: بعد تفسيري تكاملي يحدث بتفاعل طرفي الثنائية في صورة توفيقية تركيبية بينهما، وصورة قائمة على التضاد أو ما يسمى بمنطق الإما/ أو ، أو الأبيض والأسود.

في هذا البعد الأخير من الثنائيات، يكون الطرفان في علاقة تضاد لا يلتقيان؛ بل يتمّ فيهما إقصاء طرف ليعلى طرف آخر وفق تراتبية مقصودة تكرر الهيمنة. وما تعني به دراستنا هذه، هو البعد الثاني من الثنائيات "الثنائيات الضدية"؛ فهذا ما اهتم به علي حرب في الثنائيات من حيث هي بنى مغلقة. وقد تمنح أحد الطرفين الشرعية، وتنزعها عن الآخر. وهو ما سنحاول التركيز عليه في الأسطر الموالية. وتسمى أيضاً بالثنائيات التقابلية أو الإقصائية. لكن الأهم هو أنّ ما نعينه، يتمحور حول طرفين متصارعين لا يلتقيان أبداً، سواء في إطار التقابل، أم من منطق الإقصاء.

### 3. الثنائيات الضدية عند علي حرب

ينظر حرب للثنائيات الضدية على أنّها نمط فكري يكرس الانغلاق والجمود الفكري من جهة، كما يكرس المركزية وإقصاء الطرف الآخر وعدم الاعتراف به من جهة أخرى. فيقبل طرفاً ويقصي الآخر في دوغمانية غير قابلة للنقاش. وقد اعتبر علي حرب هذا المنطق غير مناسب للمشروع العربي الساعي للنهضة؛ لأنه سيبقيه في حلقة مفرغة. ومن المفروض أن ينظر المثقف العربي بنظرة منفتحة فيجب: "... تجاوز التصنيفات

وقد حظيت مشكلة الثنائيات باهتمام جلي لدى عبد الوهاب المسيري الذي ميّز بين نوعين من الثنائية:

- الثنائية الفضفاضة: وهي التي يكون فيها طرفا الثنائية متكافئين. كما يستطيعان ألا يكونا متكافئين، لكنهما مع هذا، يتدافعان ويتكاملان، ويتفاعلان.

- الثنائية الإثنيية: هي التي يكون فيها طرفا الثنائية مختلفين تمام الاختلاف، لذا فهما يدخلان في صراع أزلي. وقد يكونا عنصرين متعادلان تمام التعادل؛ فلا يتصارعان، لكن في كلتا الحالتين لا يوجد تفاعل أو تكامل (المسيري، 2024، صفحة 357).

والثنائية الفضفاضة الأساسية التي يبرزها المسيري هي ثنائية: الخالق/المخلوق. وتنبثق عنها ثنائيات تكاملية عدة منها الإنسان/الطبيعة. هذه الأخيرة التي عبرت عن الجدل المثار في العلوم الإنسانية منذ بداية ظهورها في القرن التاسع عشر. وما نتجته هذه الثنائية، هو علاقة تكاملية مركبة.

كما ميّز بين النموذجين الاختزالي والمركب، موضحاً أنّ النموذج الاختزالي هو النموذج البسيط، المنغلق والأحادي الذي ينطلق من موقف واحد. ويذهب إلى أنّه إما هناك عناصر ومبدأ واحداً في العالم، أو أنّ هناك عدة عناصر بسيطة. وهو يرى في هذا النوع من النماذج أنّها مغلقة؛ حيث لا تعترف بالثنائيات ولا بالتنوع. أما النموذج التحليلي المركب، فهو ذلك النموذج الفضفاض، والذي يمكن أن يطلق عليه المنفتح، التعددي، أو "نموذج التكامل غير العضوي" كونه يحتوي على عناصر متداخلة مركبة (المسيري، 2024، صفحة 314).

عن منطق واحد؛ إذ الأخرى أن نتحدث عن أكثر من منطق، وذلك بتعدد النماذج والمعايير، أو باختلاف الخطاب والممارسات" (حرب، 1998، صفحة 18). نستنتج من القول أن علي يؤسس لمنطق لا يثبت حقائق ثابتة ونهائية؛ بل عن المغايرة والاختلاف بدل المطابقة. والواقع دائم التغير، ومنه يجب تجاوز الاعتقاد بوجود حقيقة واحدة أيديولوجية قائمة على منطق الإما/أو؛ أي منطق الثنائيات المتقابلة.

المنطق الجديد الذي يجب أن يكون حسب علي يعترف بتعدد المناهج والخطابات. وقد انتقد في كتابه "الماهية والعلاقة" الفيلسوف "عبد الله العروي" حين أقرّ بأنه يعترف بأن عبد الله العروي حاول تجاوز المنطق التقليدي، لكنه لم يخرج عن التفكير الثنائي الإقصائي: "غير أن العروي ظلّ يفكر في أفق الأيديولوجيا العربية المعاصرة في كتابه الأول بقدر ما بقي منشغلا بثنائية الأنا والآخر أو الشرق والغرب؛ الأمر الذي جعله يشتغل بأليات المدافعة أو بمنطق المماثلة للمقارنة بين ما فعله المنطقيون المحدثون وما لم يستطع فعله العرب الأقدمون" (حرب، 1998، صفحة 22).

يستطرد ذات المفكر أن الانسياق نحو منظور عنوانه الثنائيات المتقابلة يظلّ مغلقاً متقوقعا في صورة تبسيطية أحادية الجانب. كما تجعل من المفكر ضيق الأفق، ذلك أن من مبادئ المنطق الصوري عدم التناقض، وهو مبدأ "يقضي بالجزم في الحكم؛ أي بتجريح أحد الطرفين في المناقضة لعدم اجتماع النقيضين. فإذا كان الأمر يتعلق مثلاً بثنائية القدم والحدث، فلا بد من الحكم بالطرف الراجح؛ إذ لا يمكن للعالم أن يكون قديماً وحادثاً في آن واحد. كما لا يمكن له

الخادعة والثنائيات المزيفة كثنائية الأنا والآخر أو القدم والحدثة أو التراث والمعاصرة، أو الحدثة وما بعد الحدثة" (حرب، 1998، صفحة 208).

نستطيع أن ننظر لها بمنطق آخر مغاير يجعلنا نولد أفكاراً جديدة؛ فلا يعني بالضرورة منطق الأنا/أو إختيار طرف وإقصاء آخر؛ بل قد يفضي بنا إلى بناء خطاب تحويلي يتجاوز العصبية الثنائية. ويمكن من التفاعل بين هذه الثنائيات والتركيب لإبداع معنى جديد بعيد أسلوب الإقصاء والعنصرية والتراتبية، أسلوب يجعل الخطاب مستقلاً عن أي أيديولوجيا.

### 1.3. نقد المنطق الصوري:

لا يمكن الحديث عن الثنائيات عند علي حرب دون الحديث عن أصل الثنائيات؛ أي دون التطرق للمنطق الصوري؛ فرفض الثنائيات عند حرب انبثق عن نقده للمنطق الصوري. وبعد حرب من أشد منتقدي المنطق الصوري؛ فهو يرى فيه تجسيدا لمفهوم المطابقة، وانطباق الفكر مع نفسه والذي يتشابك مع مفهوم الحقيقة المطلقة. كما يجسد الثنائيات الإقصائية. فكل من يدعي القبض على الحقيقة الثابتة، فهو دون شك ينتج ثنائيات متقابلة كالذات/الآخر.... وهي ثنائيات عمل حرب على تفكيكها من أجل كشف خداعها. ويراهنا السبب الأول في تردي الفكر العربي.

أمن علي بتطبيق منطق آخر مغاير: "هو منطق الاختلاف والمغايرة أو الحس والكثرة أو التحول والطفرة، أو الحدث والمحاثة، أو النسبة والعلاقة، وذلك على اختلاف الطرق والمناهج أو على كثرة المناحي والمقاربات أو على تحول البنيات والتشكلات. من هنا، يصعب الحديث

تفكيكيته. وعلى هذا الأساس، نعمل على استخلاص التفكير الثنائي من خطاب علي حرب استناداً إلى نصوص دريدا. وأهم خصائص التفكير الثنائي التقابلي ما يلي:

### 1.2.3. التراتبية:

هناك أولوية في اختيار المفاهيم أو نوعاً من الذاتية؛ فالمقابلة هنا بين الطرفين، تجعلنا نفضل مفهوماً عن آخر. وبالتالي، ستكون التراتبية بينهما، وصاحب المرتبة الأولى دائماً يمثل الطرف المنحاز له. يقول جاك دريدا في شرحه للتراتبية في خطاب الفكر الغربي: "النظام الذي يجعل الحقل المحددة للعلم وموضوعاته الصورية أو المادية خاضعة للتقنين الفلسفي. ومن ثم، فإن هذه العلوم المتخصصة هي أولى بحق تأسيس خطاب نظري دقيق، ومنهجي ومتسق..." (دريدا، 2020، صفحة 53).

يتحدث الفيلسوف هنا عن تحكم الخطاب الفلسفي الغربي في العلوم المتخصصة، وكيف أن صورة الفلسفة تكون هي الأولى على أساس أنها أم العلوم. بيد أن من المفترض أن تكون العلوم الأخرى مستقلة بذاتها عنها؛ كونها لا تعدّ مجالات محدودة؛ بل هي أوسع من ذلك وأولى بالدراسة. خاصة أن بإمكانها أن تكون كذلك من جهة، ولقيام علوم أخرى لا جوانب يقينية لا تحتاج إلى تأويل.

### 2.2.3. التَّشويه المعرفي:

هو مصطلح في علم النفس المعرفي. يشير إلى نمط من التفكير يجعل الإنسان يفكر بطريقة مشوهة. يعرفه نيتشه بأنه: "تحريف الفكر عن ذاته ومستقبله وعالمه، وذلك بتضخيم السلبيات، وتقليل قيمة الإيجابيات، وتعميم

أن لا يكون قديماً ولا حادثاً؛ لأنه لا وسط بين النقيضين ... هذا هو منطق الحمل والتواطؤ؛ فالتصورات تكون مطابقة والكام صادقة، والجواهر تكون متماثلة، والهويات متعينة والمهاميات ثابتة" (حرب، 1998، صفحة 35).

### 2.3. خصائص التفكير الثنائي الإقصائي:

التفكير الثنائي هو تفكير قامت عليه الأيديولوجيات عبر التاريخ كالأديان، ومنها المانوية التي تأسست على ثنائيات صارمة من النور/الظلام، الخير/الشر. كما كان له الشأن في بناء العديد من الأنساق الفكرية، كالنسق الأفلاطوني المؤسس على عالمي المثل وعالم المحسوسات، وثنائية ديكارت الشبيهة الروح/الجسد، والنسق الكانطي العقل النظري/العقل العملي. وكذا في الفلسفة العربية، نجد النسق التراثي/الحداثي. والعقلاني /النقلي إلى غير ذلك من الأنساق. لذا صار محط أنظار المفكرين ودراساتهم؛ حيث عكفوا على تفكيكه آلياته وخصائصه التي تميزه عن غيره. والتي تمثل مباشرة في الوقوف على النتائج التي تنجر عن استخدام هذا النمط في البناء الفكري، والوقوف على نقاط قوته وثغراته. ومنهم الاستراتيجيات التي نظم بها الإنسان تفكيره.

هكذا برز التفكير الثنائي في الفلسفة كأسلوب لفهم العالم والوجود من منطقتين اثنتين متقابلتين. ومن أشهر من صاغ هذه الثنائية في العصر الحديث، الفيلسوف هيغل، وذلك من خلال محاولة فهمه لتاريخ العالم عبر ثنائية الشرق والغرب. أما المفكرين الغرب الذين عمدوا بالدراسة، نجدهم جاك دريدا. وفي المفكرين العرب، نجد محمد عابد الجابري، علي حرب والذي يعدّ من أكثر المفكرين تأثر بدريدا في

الفشل، وتوقع الكوارث" (سعيد، واكلي، 2024، صفحة 660). ويعدّ التفكير الثنائي في جانب من جوانبه تشويها معرفيا؛ فالتفكير بالأبيض والأسود، يجعلنا ننظر إلى الأمور بنظرة أحادية إلغائية: "حيث يصبح معقولا من وجهة نظر الشخص وليس من وجهة نظر الآخرين" (حافظ، 2008، صفحة 3).

### 3.2.3. التطويق أو المركزية:

وهو نمط من التحكم الاستحواذي؛ حيث يتم فيه تطويق الفكرة في دائرة معرفية تسير في حركة كالعجلة لا نهاية لها؛ حيث يتم الاستحواذ على المعنى من خلال أنظمة فكرية مغلقة. يتم فيها حصر الخطاب الفلسفي وفق تواطئيات على حدّ تعبير دريدا. وهذه التواطئيات ليست إلا الثنائيات المغلقة التي يتم فيها تفضيل طرف على آخر، وتطويق الحقيقة على عنصر واحد، وإلغاء الفكرة الأخرى في دوغمانية خانقة، الكل متضمن في كل جزء بحسب الصيغة التأملية.

### 4.2.3. الإقصاء:

الإقصاء أو التهميش هو عكس الشمول والاستيعاب، وهي عملية يحرم بموجبها فئات معينة لصالح مجموعات أخرى بشكل منهجي. للتمييز ملامح أساسية، منها أن يمارس التمييز ضدّ جماعة ما لاختلافها. وهذا التمييز قد يكون إيجابيا (متعمدا ورسميا)، أو سلبيا (غير متعمد أو غير رسمي). وعمليات الإقصاء هذه تعكس تعزّز اتجاهات اجتماعية سائدة على حساب أخرى مقبوضة ومهمشة، وغير معترف بها (حسن، 2016، صفحة 8).

### 5.2.3. التطرف:

يميل التفكير الثنائي إلى رؤية العالم في إحدى الفئات. كما يحيل الأفراد إلى التفكير بطريقة متطرفة؛ إذ أنّ كل واحد منا يتعامل مع الخبرات الجديدة بلغة ومنطق الخبرات القديمة. فإذا اعتمد على أفكاره التلقائية، تغلب الصورة النمطية لديه. يعني أنّ من البديهي والأقرب إلى ما يطمئن النفس الإنسانية، هو البقاء في الصورة المعتادة التي لا تخرج عما يألّفه. وهذا التفكير يفرض على الأشخاص التمسك المتعصب الدوغمائي بهته الأفكار دون مساءلة أو محاولة وضعها تحت معيار الشك والنقد المعرفيين ولو لمرة واحدة.

### 6.2.3. التّحيز:

هي النظر للعالم والموجودات بنظرة تشويها العواطف والميولات، والتي تتدخل فيها التنشئة الاجتماعية والتربية، والمعتقدات السائدة في المجتمع. يتأسس مفهوم التّحيز على اعتبارين أساسيين: أولهما، تضخيم طرف والتمركز حوله؛ إذ يتمّ التّلاعب باللغة في خلق تنميّطات جاهزة تسم الطرف المنحاز له بجميع سمات التعالي والفوقية، وتجعله رمزا للتحضر والكمال والعلم. وثانيهما تغييب الآخر أو انتقاصه وتهميشه في محاولة لإقصائه (هاشي، 2014، صفحة 270).

### 3.3. نماذج من الثنائيات عند علي حرب:

#### 1.3.3. التراث والحداثة:

تطرح ثنائية التراث والحداثة ضمن أعقد إشكاليات الفكر العربي، كونها تخص ما ألفناه من موروث، وما علينا مواكبته من عصريّة وتطور. وقد تناولها علي حرب من منظور نقدي. ووجد أنّ المفكرين العرب شطران: أولهما قال بوجود التخلف عن التراث والالتحاق بركب

أنطولوجي بوصفها أشياء تفرض نفسها علينا، وتحضر بيننا بشكل من الأشكال؛ أكانت قديمة تخص أفلاطون وابن خلدون أم حديثة تخص ديكارت وكانط، أو معاصرة تعود لميشال فوكو وريتشارد رورتي" (حرب، 1998، صفحة 208).

مدار قوله هنا، هو فكرة مفادها أنّ الخطاب ليس مجرد نص لغوي؛ بل هو ممارسة لها آثارها الواقعية في الوعي والمجتمع، وهي تصنع الواقع؛ فالواقعة الخطابية تركز على ما يفعله الخطاب بالواقع لا ما يقوله عنه. وبدل التعامل مع الوقائع بمنطق التفسير والتأويل، جب العمل على استثمارها في إعادة إنتاج معنى جديد. يجب إذن التعامل مع الثنائيات على أنها كائن وجودي يشارك في تشكيل الواقع نحن نشكله ونبلوره كيفما نشاء على نحو تفكيكي، وذلك من أجل إنتاج معنى تركيبي جديد.

### 2.3.3. الدين والعلمانية:

من الثنائيات التي تنطوي حسب علي حرب على خداع وزيف، يستوجب تفكيكه وتشريحه لإعادة البناء والتركيب. وقد اعتبر أنّ هذه الثنائية مجرد وهم لا وجود له في الواقع؛ فالיום لا نكاد نشهد دولة إسلامية إلا ونجدها تطبق أحكاما علمانية. وكذا الدول الإسلامية التي تعتبره متعاليا عن الواقع، تقع كذلك في هذا التناقض والمأزق؛ فهي: "وإن تشكّلت تحت عباءة المقدس الإلهي، ونظمت شؤونها تبعا لأحكام الشريعة الدينية، إلا أنها لا تخلو من توجهات وأبعاد علمانية. ولا مجال لأن يكون الأمر غير ذلك مادامنا نقيم في الحياة الدنيا، وننخرط في هذا العالم" (حرب، تواصل الأضداد، 2008، صفحة 86).

يقدم علي حرب مثالا عن دلائل العلمانية في الدول المسلمة، وهو القول بـ "حرية التعبير".

الحداثة؛ بل وتجاوزه: "هؤلاء يعتقدون أن التاريخ يسير وفق خط متدرج وصاعد، وبصورة حتمية ووحيدة الجانب على ما تنكشف عنه قوانين الموضوعية. فنحن على رأيهم لن نصبح أهل الحداثة إلا إذا اجتزنا نفس الأطوار التي مرّت بها أوروبا منذ عصر النهضة، ولن نصبح حداثيين أو حديثين إلا إذا أصبحنا ديكارتيين أو كانطيين أو هيغليين أو ماركسيين" (حرب، 1998، صفحة 208).

وهذا الرأي مبالغ فيه، كونه يعيق اندماجنا في الحداثة لأبعد حدّ، ولأنه على حدّ قوله لكل عصر ظروف، ولكل مجتمع عوامله الخاصة التي انبى علمها، وتاريخه الخاص الذي سجل في ذاكرته؛ فلا يمكن أن نخوض ما خاضوا، ولا أن نمرّ بنفس ما مروا به. عدا ذلك، هذا القول يفضي إلى التأخر إلى قرون أخرى.

رأى الشطر الثاني أنّ الحداثة من صنع الآخر الذي لا يمت لنا بصلة هو وثقافته. يرى علي حرب أنّ الأول يضع مسافة تاريخية بين المفكرين العرب والغرب مقدار أربعة قرون حتى يبلغوا غايهم. والثاني يقيم هوة بينهما لا تدرم. وكلا الموقفين بالنسبة له متعصبان، نظرتهم ثابتة مطلقة إلغائية. وهكذا يسود منطق الإما/أو. وبهذا المعنى، تصبح الحداثة شيئا يقع خارجنا ... أو تصبح بالعكس نموذجا ينبغي احتذاؤه، أو أصلا ينبغي الالتحاق به" (حرب، 1998، صفحة 208).

المخرج بعد هذا التضارب والانفصال، هو "التحرر" بالنسبة له؛ أي أن نتحرر من النظرة التي تنطلق من أيديولوجيا تاريخية أو من نزعة عرقية ما. والتعامل مع هذه الثنائيات كـ "وقائع خطابية" من خلال التعامل معها: "على نحو

بخصوصياتنا، وهوياتنا، وتجاربنا بصورة عالمية" (حرب، تواطؤ الأضداد، 2008، صفحة 97).

### 3.3.3. الطليعة والجماهير:

بعد علي حرب هذه الثنائية من أكثر الثنائيات تبياناً لمآزق الفكر العربي في فشل مشروع التنوير والنهضة. وقد تحدث في كتابه "أوهام النخبة أو نقد المثقف" عن النخبة المفكرة التي تتوهم القبض على الحقيقة وتحتركها مقابل العامة الذين يتمثلون في صورة المتلقي السلبي الذي يتحمل وزر أفكارهم وقراراتهم الثقافية والسياسية دون أن يشاركوا في إنتاجها؛ فالأمر بمثابة عملية بيداغوجية وفق منطق التلقين. يقول: "المثقف الطليعي المنتهي إلى النخبة أو إلى الصفوة يصدر في فكره وسلوكه عن عقلية نبوية رسولية اصطفاوية، تجعله يتعامل مع نفسه بوصفه الأوعي والأعلم والأحق؛ أي أدري من الجماهير بمصالحها؛ بل أولى بها من نفسها" (حرب، تواطؤ الأضداد، 2008، صفحة 50).

وجه حرب نقده للمثقف العربي القابض على الحقيقة. أو بعبارة أدق، المتوهم أنه قابض عليها؛ إذن فالجماهير لها الحق أيضاً في إعادة إنتاج المعنى والمفاهيم الأساسية المسهمة في بنا المجتمع كالحرية والعدالة. ويقول: "المفكر التنويري والعقلاني والتحرري، ليس هو الذي يحيل الأفكار الخصبة التي أنتجت حول التنوير والعقل والحرة إلى مجرد معلومات يرددها على شكل محفوطات، وإنما هو الذي يقيم علاقة نقدية مع ذاته وفكره على نحو يتيح له أن يتحول عما هو بمفاهيمه عن العقلانية والحرة

ويقصد الفلاسفة وبعض العلماء المسلمين القدماء، كالفارابي وابن رشد وآخرين، إذ بعضهم أنكر النبوات وكان مقرباً للسلطين، وهذا يطرح سؤالاً ضمناً: مادام المسلمون قديماً تقبلوا العلمانية، فعلى أي أساس نرفضها اليوم؟ أليسوا هم أكثر منا إسلاماً وقرنهم خير من قرننا في التدين والقرب من الله؟

كما استند حرب إلى حجة أخرى تدعم موقفه، ألا وهي أن الإسلام من قبل كان منفصلاً عن السياسة. يقول: "الانفصال بين الفقهاء والسلطين كان فيه لكل جهاز اختصاصه، ومجاله ودوره. من هنا، لم تسم الدول بمسميات إسلامية؛ بل سميت بأسماء بناتها والقائمين عليها، كالدولة العباسية أو الخلافة الفاطمية. أما الصفة الإسلامية، فكانت تطلق على ما نسميه اليوم العالم الإسلامي، وما كان يسمى حينئذ دار السلام مقابل دار الحرب للفصل بين الداخل والخارج" (حرب، تواطؤ الأضداد، 2008، صفحة 87). ومع ذلك، فالإسلاميون اليوم (الأصوليون) ينادون بأن الإسلام هو الحل الأوحد رغم أنهم - شاءوا أم أبوا - متأثرون بالغرب أيما تأثر حسب علي حرب؛ فهم يتعلمون معارفه، ويستخدمون أدواته. وهذا هو عين التناقض والخداع.

والحل الأمثل بالنسبة لعلي حرب، هو عدم التفكير في الفصل بين الدين والدولة؛ فمشكلتنا الأساسية لا تكمن هنا؛ بل يجب تشخيص المرض الحقيقي المتمثل في "العجز"، أي نعم، عجز عن الإبداع في صناعة الحضارة، وأكثر ما يقتل المشروع الحضاري هو التفكير الجامد المتصلب عند مذهب يلغي كل ما يختلف عنه ويخالفه. لذا يجب: "التحرر من الثنائيات التي تتحكم بالعقول والمواقف لكي نمارس علاقتنا

والاستنارة" (حرب ، أوهام النخبة أو نقد المثقف، 2004، صفحة 13).

إذن، فالواجب هو نقد الذات أولاً لتغييرها وطرق تفكيرها والأنماط الجامدة التي ألفتها قصد زرع بذور التغيير في المجتمع من خلال التخلص من عقلية الفوقية على الجمهور، وحمل لواء التغيير؛ بل وتحمل الذات مسؤولية أكبر من طاقتها. في حين باستطاعتها توزيع المهام في التغيير من خلال توزيع المهام على الجماهير والنخبة بصورة تفاعلية بينهم لا بصورة النخبة الفوقية والجمهور التحتي، والتشديد على توزيع الثروات. وهكذا يكون التغيير مهمة مجتمع بأكمله؛ إذ التغيير يقع أصلاً على المجتمع بأكمله، بمؤسساته والفاعلين على جميع المستويات وفي كل القطاعات، وذلك من خلال تفكيك طرق التفكير دون الحاجة إلى المثالية المفبركة للدعاء بامتلاك الحقيقة أو أخذ الأولوية في ممارسة النقد؛ بل على الجميع ممارسة النقد العقلاني المنتج في جميع القطاعات: "أما أن تدعي فئة تسمي نفسها الطليعة الواعية أو النخبة المستنيرة للاضطلاع بعمل التنوير والتحرير والتغيير؛ فتلك مهمة أثبتت فشلها، ودفعت البشرية ثمنها جهلاً وتفاوتاً واستبداداً" (حرب ، أوهام النخبة أو نقد المثقف، 2004، صفحة 15).

إذن، مارست النخبة دوراً طليعياً بالصداية على القيم العامة كالحقيقة والحرية... ومنه وجب على المثقف بعد أن فشل في قيادة المجتمع إلى التقدم والتخلص من هذا المنطق الأحادي الذي لم يجر إلا أذيال الفشل: "بعد كل هذا الهزال الوجودي والقصور المعرفي والسياسي، فالأجدى أن يعمل المثقفون على التحرر من أوهامهم النخبوية لإعادة صوغ المفاهيم المتعلقة

بالتغيير الاجتماعي، والعمل السياسي أو الإنمائي" (حرب ، أوهام النخبة أو نقد المثقف، 2004، صفحة 14). مع منعه على النخبة للتخلص من دور حراسة الحقيقة؛ فلم تعد النخبة همّي التي تصنع العالم. كما أنّ "الجماهير ليست مادة لعملهم أو أداة لمشاريحهم وأفكارهم" (حرب ، أوهام النخبة أو نقد المثقف، 2004، صفحة 55).

نعود لنقول: إنّ المشكلة الأولى والأكثر بروزاً هي في التفكير الثنائي، أو في "ثنائية الطليعة والجماهير، أو النخبة والعامة ... إن مثل هذه الثنائيات كشفت عن عيوبها وفقدت مصداقيتها كإطار للرؤية وكأداة للعمل" (حرب ، أوهام النخبة أو نقد المثقف، 2004، صفحة 53). ويجب إعادة بلورة أفكارنا من خلال منطق منفتح في الثنائيات الفكرية عموماً، وثنائية النخبة والجماهير خصوصاً من خلال إيجاد علاقة تركيبية تفاعلية بينهما على نحو أفقي لا على نحو تلقيني عمودي. وهذا لا يتحقق إلا بأن تتخذ النخبة قراراً أنّ "تحرّر الناس أو أنّ مصلحة الجماهير هي في التحرر من نخبوية المثقفين، ووصايتهم وأوهامهم" (حرب ، أوهام النخبة أو نقد المثقف، 2004، صفحة 53).

#### 4.3.3. الإيمان والعقل:

تحدث علي حرب عن هذه الثنائية في كتابه تواطؤ الأضداد من خلال تقديم مثال حول مناضرة بين رجل دين "الكاردينال جوزيف راتسينغر الروماني الذي كان قريباً سيصبح باباً لروما"، و"يورغن هابرماس" الفيلسوف حامل المشروع التنويري. وقد أبدى علي حرب إعجابه بالتجربة الناجحة لهذه المحاضرة التي كان فيها كلّ الطرفين ممثلي الثنائية؛ متفقان على التركيب

حيث هويته وحقوقه ومكانته، وذلك باختراع مفاهيم جديدة، أو صوغ معايير مختلفة للاجتماع البشري والعمل الإنساني" (حرب، 2008، ص. 101).

رسمت تلك النظرة التكاملية صورة جميلة للتفكير بالنسبة لعلي حرب؛ حيث اكتسب بنوع من نقد الذات انتهى بتهيئة "وسط للتفاهم والتداول حول لغة أو مساحة مشتركة؛ إذ أقر كل منهما بحدوده كشرط ليعترف بالآخر، ويخطو نحوه خطوة متبادلة" (حرب، 2008، ص. 99). تواطؤ الأضداد، لكن تبقى بعيدة عن تقديم الحلول لبشرية تؤول للدمار والزوال؛ فالأولى، هو أن نستيقظ من سباتنا البشري؛ ليست القضية الآن الدفاع عن هذه الخصوصية أو تلك الهوية، وإنما القضية هي الدفاع عن أشكال العيش المشترك على الأرض؛ أي كيف يمكن ترجمة الأفكار والعقائد والمذاهب والقيم على أرض الواقع ليتمكن البشر من العيش سوياً في مواجهة الأخطار والكوارث". (حرب، 2010، ص. 247). إذن، فالأجدر انطلاقاً من هذا القول، هو التركيز على كيفية تطبيق شعارات حماية الإنسانية وحقوق الإنسان، سواء من جهة الدين أو من جهة العقل على أرض الواقع، وكيفية تسخيرهما معاً لخدمة البشرية، وتغيير الواقع المؤلم الذي وصلت إليه من دمار.

### 5.3.3. التفسير والتغيير:

تتعلق هذه الثنائية بالعالم ودور الإنسان فيه إذا ما كان تقتصر على التفسير، أو يصل إلى التغيير الفعلي، طبعاً نحو الأفضل. ومنذ ماركس أصبح العديد من المفكرين يرون أنّ دور الإنسان فعلياً هو تغيير العالم وإحداث الفارق، فيه لا

والتجاوز. اعترف كل منهما بحدود طرفه، ونقاط ضعفه، واحتياجه للآخر؛ حيث اعترف يورغن بأزمة الحداثة والمشروع التنويري. كما اعترف للجماعات الدينية بقسطها من المشروعية في محاولة لنقد الذات، والانفتاح على الآخر.

كما اعترف الكاردينال بأنّ "الدين يعاني من أمراض خطيرة؛ بل قاتلة، مصدرها التعصب الذي يمارسه باسمه الأصوليون المتطرفون، وكما يتجسم ذلك فيما تشهده الساحة العالمية من التوتر والفوضى، والاضطراب والإرهاب" (حرب، تواطؤ الأضداد، 2008، صفحة 100). تم الانتهاء إلى حلّ توفيق قائم على نقد الذات، والانفتاح على الآخر في صورة تركيبية ناجحة تمّ فيها تجاوز التعصب للثنائيات، فازت فيها النظرة التكاملية التي تمّ فيها الإنابات أنّ كل من الإيمان والعقل بحاجة "لإصلاح نفسه وإعادة بناء مشروعيته؛ فالدين يحتاج إلى العقل كأداة صالحة لضبطه وتصحيحه، ولكن للعقل أيضاً آفاته. ولذا، فهو يحتاج إلى الإقرار بمحدوديته للإفادة من الدين" (حرب، تواطؤ الأضداد، 2008، صفحة 100).

يستطرد علي حرب أنّ هذا الموقف التركيبي بجماليته أو بالأحرى بمدى انفتاحه على الآخر ليس هو الحل الأمثل، ولا الذي سيغير العلاقة بينهما؛ فالمشكلة ليست في اعتراف كل منهما بالآخر، ومن المفروض أن هذا موجود بصورة بدئية لا تحتاج إلى كل هذا التشهير؛ بل إنّ المشكلة الحقيقية والتي يغفل عنها الكثيرون، هي أنّ هذا المأزق لا يمس حراس الإيمان والعقيدة، أو حراس العقلانية والتنوير لوحدهم؛ بل يطال النوع البشري بأكمله. ولذا، فالحل هو "إعادة تعريف الإنسان الذي نحسبه مؤمناً أو عاقلاً من

عمودية فوقية، وإنّما بصورة أفقية تتفاعل فيها جميع القطاعات. ولذا قال: "عالم لا يصنعه المثقفون المحترفون وحدهم، وإنما تصنعه كل القوى الفاعلة فيه. وهذا يعني أنّ التغيير هو فاعلية حضارية تشارك فيها جميع القطاعات المنتجة وكل القوى الناشطة في الفضاء الاجتماعي" (حرب، حديث النهايات: فتوحات العولمة ومآزق الهوية، 2004، صفحة 20). من هنا، يبدأ التغيير الفعلي في العقليات وفي طرق التفكير قبلا.

#### 4. نحو منطق تحويلي:

بعد عرض موقف علي حرب من الثنائيات الضدية وكيف يفكك تأثيرها على الفكر العربي، تبين أنّ هذا المشروع الفكري القائم على فلسفة الانفتاح، إنما في مقصده مشروع واقعي بعيد عن المثالية والتنظير؛ حيث يبحث عن تجسيد أفكار واقعية، وفكر ممارساتي قصد خلق ساحة فكرية مبدعة لا جامدة مقلدة.

لعل هذه أبرز مكاسب نقده للثنائيات، والتي يمكن تلخيصها في "المنطق التحويلي"، وهو يعني حسب علي حرب منطق علائقي بالدرجة الأولى؛ حيث يهتم بالعلاقات بين المفاهيم، ولا بماهية المفاهيم. هكذا يصير الفكر إلى ممارسة يتم من خلالها التغيير والإنتاج بدل النشاط النظري الأجوف. وانطلاقاً من هنا، تتغير معاملة الإنسان للمفاهيم والأفكار، وتصبح أداة توليد وإبداع. وبعدها تتغير نظرته للأنا /العالم بالأنا /الآخر. وهكذا يتغير الأسلوب من قبض على الحقيقة إلى إنتاج المقاربات المفهومية. كل هذا لما نتخلى عن منطق الثنائيات، ونشتغل على توليد علاقة جديدة بينهم من خلال منطق تحويلي. يقول عنه حرب: "هو الذي يفسر لنا قدرة الفكر على إبداع

الاقتصار على تفسير ما يدور فيهن؛ لأنه يبدو أنّ مرحلة التفسير قد ولت.

وبالنسبة لعلي حرب، فقد طرحها في سياق الحديث عن الهوية الثقافية العربية وحمايتها النخبويين الذين يدعون القبض على الحقيقة. واعتقد أنّ مهمة التفسير أو التغيير أولاً لا تتعلق بالنخبة لوحدهم من جهة. ومن جهة ثانية، أصبحت المهمة اليوم ليست العمل على تغيير العالم وإحداث الفارق فيه، وكذلك ليست هي تفسيره كما جرى التفكير قبل ماركس؛ فهو في الحقيقة شئنا أم أبينا كل محاولة تعمل لفهم العالم وتفسيره، وعلى تغييره: "كل مقارنة هامة للعالم إنّما تسم في تغييره بقدر ما تعيد تشكيله عبر الأفكار الخلاقة والمفاهيم الخارقة. ومثالي على ذلك، أنّ مقولات مثل العولمة ونهاية التاريخ أو نهاية المثقف، تحقّق مجالها التداولي، وتفعّل فعلها على ساحة الفكر، حتى على الذين يرفضونها ويعملون على نقضها ومقاومتها" (حرب، حديث النهايات: فتوحات العولمة ومآزق الهوية، 2004، صفحة 18).

إذن، فكل دعوة للتغيير أصبحت اليوم تعد منتهى؛ لأن كل ما حولنا في العالم اليوم، يتغير بصورة متسارعة لدرجة أننا لا نستطيع مجاراته. لذا علينا التفكير بطريقة أعمق، أو ربما بعبارة أدق، العودة إلى الذات؛ فالتغيير الحقيقي يكمن في إعادة تفكيك آليات التفكير وأن يتخلص المثقف من نخبويته. وهكذا يصبح التغيير مهمة الجميع. ومنه يحدث التغيير فعلاً؛ لأن المجتمع بجميع مؤسساته وأفراده الفاعلين فيه، سيشعر بمسؤولية التغيير، وسيقوم بدوره في تغيير العالم، وألا ينظر للتغيير على أنّه مهمة تقتصر على المثقف لوحده؛ فالتغيير لا يحصل بصورة

والابتكار. وعلى تغيير ذاته وإعادة بنائها أو ترميمها" (حرب، حديث النهايات: فتوحات العولمة ومآزق الهوية، 2004، صفحة 9).

والتركيب فيه نوع من الإبداع، لكن ليس كله إبداع؛ فهو عبارة عن جمع وربط مفاهيم معاً، وتركيبها لإعادة بناء فكرة مركبة. وقد تعمدنا التركيز على كلمة مركبة؛ فليس إبداعاً كبيراً.

والإبداع هو أولاً إنتاج وليس إعادة بناء، ثم هو إنتاج مالم يكن موجوداً من قبل. والتركيب في حقيقته لا يتجاوز حدود إطار المفهومين أو الفكرتين المركب بينهما؛ صحيح قد تحدث علي حرب على التوليد وهو الأقرب للإبداع، لكن أيضاً التوليد ليس إبداعاً؛ فلا ننكر أنّ فيه إنتاجية، لكنه يعتمد على ما هو قديم أيضاً. ويبقى مستنداً إلى تلك المفاهيم وكأنّ علي حرب ذلك المفكر الذي أرقه وضع الفكر العربي المتردي، لكنه متأثر به، ولا يستطيع الخروج منه وعنه مهما ادعى ذلك؛ فعلى قدر ما انتقده ومناهجه، نجده لا ينتقده إلا به.

إنّ الفكر العربي حسب حرب، يحتاج إبداعاً يعود به بقوة للساحة الفكرية العالمية، كما أنتج البيروني، وكما أبدع فرويد اللاوعي، وكما أبدع كانط في العقل النقدي من العدم. إنّ فعل الخلق والإبداع من اللاشيء، يختلف عن فعل التوليد والإنتاج مما هو موجود، وأكد يختلف عن التركيب؛ فنجد أنّ علي حرب ينادي بالتححرر من القديم الذي لم يستطع هو ذاته التحرر منه (حرب، الإنسان الأدنى: أمراض الدين وأعطال الحداثة، 2010، صفحة 53).

في "خطاب الهوية"، نجد علي حرب كثيراً ما يتحدث بمنطق الإما/أو، بوعي أو بغير وعي منه، في صورة تبرز أنّه لم يستطع الخروج عن فخ

التركيبات المفهومية المختلفة أو على ابتكار التشكيلات الخطابية المتكاثرة... وهكذا ليس الفكر قبضاً على الماهيات؛ بل هو اشتغال على معطيات واقعية أو فكرية، على نحو يؤدي إلى تحويل العلاقة بين الأنا والعالم" (حرب، الماهية والعلاقة: نحو منطق تحويلي، 1998، صفحة 198).

المنطق الأحادي القيمة منطق إقصائي، يجعلنا منغلقي التفكير؛ بل ويفقدنا الكثير من مزايا الباحث العلمي والإبداعي. كما ينقص من وزن أفكاره إذ هي بعيدة كل البعد عن الموضوعية أو عدم الانحياز. ويفقد الفكر قيمته ليس أفضل من أفكار تكون نابعة من نظرة تكاملية، تتقبل الاختلافات، منفتحة على جميع الجوانب؛ لأنها ستكون بالضرورة أكثر حكمة، فالأفضل هو أن نتخلّى عن منطق الإما/أو، ونكون أكثر مرونة وانفتاحاً إذا ما أردنا النجاح؛ ف"الحلول القصوى لا تنتج سوى التعثر وال فشل والسقوط" (حرب، خطاب الهوية: سيرة فكرية، 2008، صفحة 90).

ورغم هذا، ثمة بعض النقاط التي نود الوقوف عندها، ألا وهي أنّ مفكرنا قد استنكر الثنائيات، منادياً بالتحويل؛ أي تغيير طريقة النظر للأشياء من خلال تفكيكها وتوليد معان جديدة، والتركيب بينها على نحو إبداعي. بعبارة أوضح، يتحدّث علي حرب عن التحويل أحياناً باسم التركيب، وأحياناً أخرى باسم التوليد، وأخرى باسم الترميم، وأيضاً باسم الإبداع، غير مهتم بإبراز الفرق بين هذه المفاهيم. وقد جمع بين جميع هذه المعاني في سياق واحد؛ ففي قوله هذا المقتبس من خطاب الهوية قد تتضح الفكرة التي نريد شرحها: "فقد يقوم مثلاً بتحويله إلى أثر أدبي أو فني، يشعر معه بمتعة القدرة على الخلق

في خاتمة الورقة البحثية وما نريد أن نؤسس له، هو أنّ الثنائيات الضدية لها أثر بالغ في تشكيل الخطابات الفكرية، الغربية منها أو العربية. وقد حاولنا تقديم مقارنة مفاهيمية عنها، وعن خصائصها وأنواعها؛ انتقلنا إلى السياق العربي واخترنا عبد الوهاب المسيري كنموذج يقدم طرحا متناقضا مع الطرح الحربي، والذي ركزنا فيه على كيفية تفكيكه للثنائيات. وقد خلصنا إلى النتائج الآتية:

- التفكير الثنائي له جانب إيجابي، سواء على الصعيد المعرفي أو الثقافي... الخ. وبعبارة أخرى، سلبياته، فهو يساعد في التبسيط والفهم. كما أنه يساعدنا في معرفة الطرفين بدقة.

- إنّ وضع الأمور والمسائل في نطاقين يبسط الأمور ويسهلها، وهذا بدل أن تكون معقدة؛ فتصنيف الأشياء إلى شيئين، يضيق مجال الافتراض، وتبسط الحقائق وينتظم الفهم، ويجعلنا أقرب إلى الحقيقة، خاصة أنّ الاحتمالات قد تشتتتنا وتوجهنا للمجهول.

- ساعد هذا النوع من التفكير الإنسان القديم في فهم العالم، وذلك من خلال تقسيم الأشياء إلى خير/شرن إنسان/طبيعة...؛ فرمزية النور والظلام عند أفلاطون، تلخص في الفضيلة نور والرذيلة ظلام. ومثالها أسطورة الكهف؛ حيث عبّر عن أن يعيش الإنسان داخل الكهف، هو ظلام وجهل. ولحظة الخروج منه، تمثل النور والمعرفة.

كما لا ننكر أنّ النقيض بالنقيض يعرف، ثمّ أنّه يتيح لنا المقارنة والمقابلة لمعرفة ذاتنا. والعرب لو لم يقارنوا أنفسهم بالغرب، لما استطاعوا أن يكتشفوا مدى تخلفهم. إنّ تجرع هذه الحقيقة المرة، لم تكن لتوجد أصلا لولا ثنائية الأنا/الآخر.

الثنائيات كثنائية: النخبة/الجمهور من التي سماها القدماء بالخاصة/العامة. ونجد أنّه نادى بعدم رسمها بصورة عمودية تكون النخبة فيها بصورة فوقية على العمدة؛ بل العلاقة بينهما وجب أن تكون أفقية، تفاعلية. ثم قال أنّه لا يجب التأثير بالقديم، وما هو الآن في قوله هذا يبرز لنا أنّه قد وقع في هذا الفخ دون تفطن منه ربما: "الجمهور أو العامة لا يدركون الأمور بالعقل والبرهان؛ بل يدركونها بالمناسبة والتمثيل، وهم لا قدرة لهم على تأول الحقائق، ويقفون عند الظاهر، ولا يتعدونه إلى الباطن. وهم لا يتفقهون في المسائل، ولا يتدبرون الأفعال؛ بل يقلدون في آرائهم العلماء، ويطيعون في أفعالهم الرؤساء.

وما زاد في اقتناعه برأي الحكماء في صفات الجمهور، أنّه كان ينظر إلى العوام؛ فيراهم يؤلهون رؤساءهم" (حرب، حديث النهايات: فتوحات العولمة ومازق الهوية، 2004، صفحة 9). وذلك من خلال هذا القول الذي نلمس فيه ثنائية صارخة في فكره وخطابه، والذي يصرح فيه أيضا بتأثره بالحكماء القدماء لا شك. مع أنّنا لن ننكر أنّه أقرّ في بداية الكتاب أنّه تراجع مع مرور الزمن عن كثير من الآراء التي كان قد أقرّها في خطاب الهوية. لكن أين الاعتراف؛ فحين نجده يتحدث في مؤلفاته عن المثقف وعن الجمهور، نلمس روحا ثائرة عن وضع لم يكن ليكون منه وفيه يوما. ثمّ إنّ خطابه لا يظهر أنّه تبوّأ هذه الآراء قبل خطابه الأيديولوجي الذي يحمل منظومة فكرية مصطبغة ربما بلغة الغضب أو الأسى أو الازدراء أحيانا الناتج عن الغيرة على آل إليه وضع الفكر العربي.

4. خاتمة:

العروي، عبد الله، (2012)، مفهوم الأيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، ط8. حرب علي، (1998)، الماهية والعلاقة: نحو منطق تحويلي، ط1، المركز الثقافي العربي. حرب علي، (2004)، أوهام النخبة أو نقد المثقف، ط3، المركز الثقافي العربي. حرب علي، (2004)، حديث النهايات: فتوحات العولمة ومآزق الهوية، ط2، المركز الثقافي العربي. حرب علي، (2008)، تواطؤ الأضداد، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون. حرب علي، (2008)، خطاب الهوية: سيرة فكرية، ط2، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان. حرب علي، (2010)، الإنسان الأدنى: أمراض الدين وأعطال الحداثة، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، القاهرة. دريداجاك، (2020)، هوامش الفلسفة، تر: منى طلبة، دار التنوير للطباعة والنشر، مصر. المسيري عبد الوهاب، (2024)، دفاع عن الإنسان، ط5، دار الشروق، مصر. صليباجميل، 2022، المعجم الفلسفي، ج2، دار الكتاب اللبناني، لبنان. المقالات: سعيدي، أنيسة، واكلي بديعة، (2024)، التشوهات المعرفية المسببة لاضطراب الاكتئاب عند المراهق، مجلة دراسات في سيكولوجيا الانحراف، مج9، ع1، ص652-674. شريف الدين بن دوبة، (2019)، فلسفة التنوع فتحي التريكي - أنموذجا، مجلة التدوين، الجزائر، مج11، ع2، ص121-149.

- على صعيد آخر، يبدو أنّ إثم التفكير الثنائي أكبر من منافعه؛ إذ كرس التراتبية والعنصرية والمركزية لطرف على حساب طرف آخر؛ الأمر الذي أوقع العداء بين البشر بمنطق إما أن أكون أنا مركز الكون، أو مركز المعرفة أو لا أحد. - اعتبر علي حرب أنّ الحل الأمثل لتجاوز الثنائيات هو رسم صورة إبداعية إما بالتركيب أو بالتوليد أو الترميم. وهذا في الحقيقة ليس إبداعا بمعنى الكلمة، وإنما هو انطلاق من أسس موجودة ومبنية سابقا. بيد أنّ الإبداع هو الانطلاق من الأساس، يعني تقويض كل ما هو قديم مهندسة جديدة ومخطط جديد. - إنّ الثنائيات الضدية تحتاج إلى مبدأ "الاعتراف بالآخر". وليس المشكل في الثنائيات بحد ذاتها، وإنما المشكل في ثقافة احترام الآخر، وحقّه في الاختلاف؛ فلا ضير من ثنائية الشّرق/الغرب إلا إذا طغى عليها منطق الإقصاء. فحتى لو لم يكن الطرفان متكافئان، إلا أنّ كلّ منهما يعترف بحق الآخر في اختلافه. - لا يكمن التغيير الحقيقي في تغيير العالم، أو في نقل الفكر العربي من هذه المرحلة إلى أخرى ذهبية، إذ الأمر لا يتم بهذه السرعة، وإنّما في الحقيقة التغيير يبدأ منا نحن، وعلينا أن نغير أنفسنا، وطرق تفكيرنا كذلك، علينا أن نغربل أفكارنا ونغسلها من الصّدأ. هذه الكلمة تلخص معنى عميقا أنّ التغيير يكون بالتطبيق العملي لا النظري فقط.

##### 5. قائمة المراجع:

حسن، أبو بكر، (2016)، المواطنة الشاملة، مؤسسة فريدريش إيبيرت، مكتب مصر. صلاح، إسماعيل، (2020)، الثنائية في فلسفة العقل. منصة معنى الثقافية.

طحطاح مبروك، (2018)، الثنائية الديكارتية: التمييز بين النفس والجسم. مجلة دراسات وأبحاث، مج10، ع4، ص692-683.

غزلان، هاشمي، (2014)، إشكالية التحيز في الفكر العربي المعاصر، مجلة كلية التربية، ع15، مج1.

مهتدي حسين وآخرون، (2023)، الثنائيات الضدية في مجموعة "قصائد أولى" لأدونيس، مجلة التواصلية، مج9، ع(2)، ص166-155.

هاشم حافظ سلام، (2008)، التفكير الثنائي وعلاقته بأبعاد التعاطف لدى المرشدين التربويين، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، مج22، ع3. العراق.